قصص تتعلق بالكلاب

obeikandl.com

قصص تتعلق بالكلاب[17]

وزعم اليقطريُّ أنّهُ أبصرَ رجلاً يكُومُ كلبةً من كِلاب الرعاء، ومرَّ بذلك الزُّبِّ العظيمِ في ثفرها - والثَّفرُ منها ومن السبع، كالحِرِ من المرأة والظَّبْية من الأتان والحِجر، والحياء من الناقة والشاة - فزعم أنّها لم تعقِد عليه، ولا ندري أمكّنته أم اغتصبَها نفسَها.

وأمّا النَّاس ففي مُلح أحاديثهم: أَنّ رجلاً أشرفَ على رجل وقد ناك كلبةً فعقَدت عليه، فبقي أسيراً مستخْزِياً يدور معها حيث دارت، قال: فصاح به الرجل: اضربْ جَنبَيها، فأطلقته، فرفَعَ رأسه إليه، فقال: أَخزاه اللّه أيُّ نيَّاكِ كلْباتٍ هو.

وخبّرني من لا أردُّ خبره، أنّه أشرفَ من سطحٍ له قصير الحائط، فإذا هو بسَوادٍ في ظلِّ القمر في أصل حائط، وإذا أنينُ كلْبة، فرأى رأسَ إنسان يدخل في القمر، ثم يرجع إلى موضعه من ظِلّ القمر، فتأمَّل في ذلك فإذا هو بحارس ينيك كلبة، قال: فرجمتُه وأعلمته أنّي قد رأيتُه، فصبَّحني من الغد يقرَع الباب عليّ، فقلت له: ما حاجتك؟ وما جاء بك؟ فلقد ظننتُ أنّك ستركب البحر أو تمضي على وجهك إلى البراري، قال: جُعِلتُ فِداك، أسألك أن تستُر عليّ، ستَرَ اللّه عليك، وأنا أتوب على يديك قال: قلت ويلَك، فما اشتهيتَ مِن كلبة؟ قال: جُعلت فداك، كلُّ رجلٍ حارسٍ ليس له زوجةٌ ولا نجل، فهو ينيك إناثَ الكلاب إذْ كنَّ عِظامَ الأجسام، قال: فقلت: فما يخاف أن تعضَّه؟ قال: لو رَامَ ذلك منها غيرُ الحارس التي هي له وقد باتتْ معه فأدخلها في كِسائه في ليالي البرد والمطر، لما تركته، وعلى أنَّه إن أراد أن يوعبه كلَّه لم تستقرّ له، قال: ونسيتُ أنْ أسألَه: فهل تعقِد على أُيور النّاسِ كما تعقِد على أيور الكلاب؟ فلقيته بعدَ ثلاثين سنة، فقال: لا أدري لعلّها لا تعقد عليه، لأنَّهُ لا يُدْخِلُهُ فيها إلى أصله، لعلّ ذلك أيضاً إنَّما هو شيءٌ يحدث بين الكلب والكلبة، فإذا اختلفا لم يقع الالتحام، قال:فقلتُ: فَطَيِّبٌ هو؟ قال: قد نكتْ عامَّة إنَاث الحيوانات فوجدتُهُنَّ كلَّهنَّ أطيَبَ من النساء، قلتُ: وكيف ذلك؟ قال: ما ذاك إلاّ لشدَّة الحرارة، قال: فطال الحديث حتى أَنِس فقلتُ له: فإذا دار الماء في صُلْبك وقرُبَ الفراغ؟ قال: فربَّما التزمتُ الكلبةَ وأهوَيت إلى تقبيلها، ثم قال: أمَا إنَّ الكلابَ أطيبُ شيءٍ أفواهاً،

(17) الحيوان للجاحظ (1/ 112).

وأعذَبُ شيءٍ ريقاً؛ ولكن لا يمكن أنْ أنيكها من قُدَّامٍ، ولو ذهبتُ أن أنيكها من خلف وثنيتُ رأسَها إلى أنْ أقبِّلها، لم آمَنْ أنْ تظنَّ بي أني أريدُ غيرَ ذلك فتُكدِّم فمي ووجهي، قال فقلت: فإنِّي أسألُك بالذي يستُرُ عليك، هل نَزَعت عن هذا العمل مُنْذُ أعطيتَني صفقةَ يدِك بالتَّوبة؟ قال: ربَّما حنَنتُ إلى ذلك فَأَحتبسُ بعهدك.

قال: وقلتُ: وإنَّك لتحنُّ إليها؟ قال: واللّه إني لأَحِنُّ إليها، ولقد تَزَوَّجتُ بعدَك امرأتين، ولي منهما رجالٌ ونساء، ومن تعوّد شيئاً لم يكد يصبرُ عنه قال: فقلت له: هل تَعرف اليومَ في الحُرّاس مَن ينيك الكلبات؟ قال: نعم، خذ محموَيه الأحمر، وخذ يشجب الحارس، وخذ قفا الشاة، وخذ فارساً الحمّاميّ فإنّ فارساً كان حارساً وكان قيِّم حَمّام، وكان حَلَقيّاً، فزعم أنّه ناكَ الكلابَ خمسين سنة، وشاخ وهُزِلَ وقبُح وتشنَّج، حتّى كان لا يُنيكه أحد، قال: فلم يزَلْ يحتالُ لكلب عندَه حتى ناكه، قال: وكان معه بخير حتَّى قتله اللصوص، ثمَّ أشرفَ على فارسٍ، هذا المحتسِبُ الأحدبُ، وهو ينيك كلبةً فرماه بحجر فدمَغَه، قال: فالكلاب كما ترى تُتَّهم بالنساءِ، وينيكها الرجال، وتنيك الرجال، وليس شيءٌ أحقّ بالنفي والإغراب والإطراد وبالقتل منها، ونحن من السباع العاديَة الوحشيَّة في راحة، إلاّ في الفَرْط فإنّ لها عُراماً على بعض الماشية، وجنايةً على شرار العامَّة وكذلك البهائم، وما عسى أن يبلغ من وطْءِ بعير ونطح كبش، أو خمش سِنّورٍ أو رَمْح حمار، ولعلّ ذلك يكون في الدهر المرّةَ والمرّتين، ولعلَّ ذلك أيضاً لا ينالُ إلاّ عبداً أو خادماً أو سائساً، وذلك محتَمل، فالكلاب مع هذه الآفات شركاءُ الناس في دورهم وأهاليهم.

قال صاحب الكلب: إنْ كنتم إلى الأذى بالسُّلاح تذهبون، وإلى قَشرِ طِين السطوح بالبراثن تميلون، وإلى نتن السُّلاح وقذَر المأكول والمشروب تقصدون، فالسِّنَّورُ أكثر في ذلك، وقد رويتم عن النبي صلى اللّه عليه وسلم في ذلك أنّه قال: هُنَّ مِنَ الطَّوَّافاتِ عليكم، فإذا كان ذلك في السنانير مغتفراً، لانتفاعهم بها في أكل الفأر، فمنافع الكلاب أكثرُ، وهي بالاعتقاد أحقّ، وفي إطلاق ذلك في السنّور دليلٌ على أنّه في الكلاب أجْوَز.

وأمَّا ما ذكرتم من إنعاظه، فلعمري إنّه ما ينبغي للغَيورِ أن يُقيم الفرسَ ولا البِرذونَ والبغلَ والحمارَ والتَّيس في المواضع التي تراها النساءُ، والكلبُ في ذلك أحسنُ حالاً، وقد كرِه ناسٌ إدخال منازلهم الحمامَ والدِّيكةَ والدجاج والبطّ

خاصة؛ لأنّ له عند السفاد قضيباً يظهر، وكذلك التيس من الظباء، فضلاً عن تُيوس الصفايا، فهذا المعنى الذي ذكرتمْ يجري في وجوهٍ كثيرة وعلى أنّ للحمام خاصَّةً من الاستشارة، والكَسْم بالذنب، والتقبيل الذي ليس للناس مثلُه، ثمَّ التقبيل والتغزّل والتَّنفُّش، والابتهاج بما يكون منه بعدَ الفراغ، وركوب الأنثى للذكر وعدم إمكانها لغير ذكرها، ما يكونُ أهيجَ للنساء ممَّا ذكرتم، فلم أفردتم الكلب بالذِّكر دونَ هذه الأمورِ، التي إذا عاينت المرأة غُرمُولَ واحِدٍ منها، حقَرت بعلَها أو سيِّدَها، ولم يزل ظلُّ ذلك الغرمول يعارضها في النوم، وينبِّهها ساعةَ الغفلة، ويُحدِث لها التمنِّيَ لما لا تقدر عليه، والاحتقارَ لما تقدر عليه، وتركتم ذكر ما هو أجلُّ وأعظمُ إلى ما هو أخسُّ وأصغر؟ فإنْ كنتم تذهَبون في التشنيع عليه إلى ما يعقر من الصبيان عند العَبَث والتعرُّض، والتَّحَكك والتهييج والتحريش، فلو أنّ الذي يأتي صبيانُكم إلى الكلب، من الإلحاح بأصناف العَبَث - والصِّبيانُ أقسى الخلْقِ وأقلّهم رحمةً - أنْزَلُوهُ بالأحنف ابن قيس، وقيس بن عاصم، بل بحاجب بن زُرارة وحِصن بن حُذَيفة، لخَرَجُوا إلى أقبَحَ ممَّا يخرج إليه الكلب، ومَن ترك منهم الأخذَ فوق يدِ ابنه، فهو أحقُّ باللائِمة.

وبعد فما وجدْنَا كلباً وثبَ على صبيٍّ فعقَره مِنْ تلقاءِ نفسه، وإنّه ليتردَّد عليه وهو في المهد، وهو لحمٌ على وضَم، فلا يشَمُّه ولا يدنو منه، وهو أكثرُ خلقِ اللّه تعالى تشمُّماً واسترواحاً؛ وما في الأرضِ كلبٌ يلقى كلباً غريباً إلاّ شمّ كلٌّ واحدٍ منهما استَ صاحبه، ولا في الأرضِ مَجوسيٌّ يَموت فيُحْزَن على موتِه ويحمل إلى الناوُوس إلاَّ بعد أن يُدنى منه كلبٌ يشَمُّه، فإنّه لا يخفى عليه في شمِّه عندَهم، أحيٌّ هو أم ميِّتٌ؛ للطافةِ حِسِّه، وأنّه لا يأكل الأحياءَ، فأمَّا اليهود فإنّهم يتعرَّفون ذلك من الميّت، بأن يدهُنوا استَه، ولذلك قال الشاعر وهو يرمي ناساً بدين اليهودية:

إذا مات منهم ميِّتٌ مَسَحُوا اسْتَهُ ... بدُهنٍ وحَفّوا حَوْلَه بقِرَام

قتيل الكلاب:

وتنازع مالك بن مِسْمَع وشقيق بنِ ثور، فقال له مالِك: إنَّما رفعك قَبْرٌ بتُسْتَر فقال شقيق: حينَ وضَعَك قبرٌ بالمشقّر، يا ابن قتيلِ النساء وقتيل الكلاب.

قال: وكان يقال لمسمع بن شيبان قتيلُ الكلاب، وذلك أنَّه لجأ في الردة إلى قومٍ من عبد القيس، فكان كلبُهم ينبحُ عليه فخاف أن يدلَّ على مكانه فقتَلَه فقُتِلَ به.

نفع الكلب:

والكلب إن كان كما يقول، فإنَّ له يداً تشجُّ وأخرى تأسُو، بل ما يدفَع اللّه بحراسته ويجلب من المنافع بصيده أكثرُ وأغمر، وهو الغامر لا المغمور، والفاضل لا المفضول، والديك يفقأ العُيونَ وينقُر الأدمغة ويقتل الأنفس، ويشُجُّ ولا يأسو؛ فشرُّه صِرف وخيره ممزوج، إلاّ أنْ يزعموا أنّه يحرس من الشيطان، فيكون هذا من القول الذي يحتاج إلى البرهان، ومن عارض منافع الكلاب وحراستَها أموالَ الناس من اللصوص، ومنعَ السِّباع من الماشية، وموضعَ نفع الكلب في المزارع - وذلك عيان ونفعه عامٌّ وخطبه عظيم - بما يُدَّعَى من حراسة الدِّيكة للشيطان، لم يكايل ولم يُوازِن ولم يَعرف المقايسة، ولا وقَفَ قطُّ على معنَى المقابلة ودَلَّ بذلك على أنَّ مبلغَ رأيه لا يجوز رأيَ النساء.

العواء وما قيل من الشعر فيه:

ويكون العُواء للكلب والذئبِ والفصيل، وقال النابغة:

ألم أكَ جـارَكم فتركتمـوني ... لِكلـبي في ديـاركمُ عُـواءُ

وقال الشاعر:

وإنِّـي امـرؤٌ لا تقـشَعِرُّ ذؤابـتي ... من الـذئب يَعوِي والغرابِ المحجَّلِ

وقال الشاعر:

ومستَنْبحٍ تَستَكشِط الرّيحُ ثَوْبَه ... ليَسقُط عنهُ وهو بالثَّوب مُعْصمُ
عَوى في سوادِ الليل بعدَ اعتسافِهِ ... لينبَحَ كلبٌ أو ليفزَعَ نُوّمُ
فجاوبَهُ مستسمِعُ الصوتِ للقِرَى ... له مع إتيان المُهبِّينَ مَطْعَمُ
يَكَادُ إذا ما أبصر الضيفَ مُقْبِلاً ... يكلِّمُهُ من حبِّهِ وَهوَ أعجَمُ

وقال ذو الرُّمَّة:

بـه الـذئب محزونـاً كـأنَّ عـواءَه عـواءُ فـصيل آخـرَ الليـلِ مُحنَـلِ

وقال آخر:

ومنهـــلٍ طامـــسة أعلامُـــه يَعـوِي بـه الـذئبُ وتَزقُـو هامُـه

وقال عَقيل بن عُلّفة يهجو زبَّان بن منظور:

لا بـاركَ اللّـهُ في قـومٍ يـسودهمُ ذئبٌ عَوى وهو مشدود على كَورِ
لم يبـقَ مـن مـازنٍ إلاّ شـرارُهُم فوقَ الحصَى حولَ زبّان بنِ منظورِ

وقال غَيلان بن سلمة:

ومعـــرِّس حـــين العـــشاء بـــه الحـــبس فـــالأنواء فالعقـــل
قـــد بثَّـــه وهنـــاً وأرّقـــني ذئـــب الفـــلاةِ كأنّـــه جِـــذلُ
فتركتـــه يعـــوِي بقَفرتِـــه ولكـــلِّ صـاحِب قفـرةٍ شـكلُ
بتَنُوفـــةٍ جـــرداءَ يجزعهـــا لَحِـــب يلـــوحُ كأنّـــه سَـــحْل

وقال مغلّس بن لقيط:

عـوى مـنهُمُ ذئـبٌ فطـرَّب عاديـاً علـى فعليـات مُـسْتَئارٍ سـخيمها
إذا هُـنَّ لم يلحَـسْنَ مـن ذي قرابـةٍ دمـاً هُلِـستْ أحـسادُها ولحومُهـا

وقال الأحيمِرُ السعديُّ:

عـوى الـذئبُ فاستأنـستُ بالـذئبِ إذ عـوى

وصوَّتَ إنسان فكِدتُ أطيرُ وقال آخر:

وعاوٍ عَوى واللّيْلُ مستحلس الندى وقـد زَحَفَـتْ للغـور تاليـة الـنَّجمِ

وذلك أنّ الرجلَ إذا كانَ باغياً أو زائراً، أو ممّن يلتمِس القرَى، ولم ير بالليل نَاراً، عوى ونبح، لتجيبَه الكلاب، فيهتدي بذلك إلى موضع الناس.

وقال الشاعر:

ومُستَنبِحٍ أهلَ الثَّرى يَلمَس القِرى ... إلينــا وممــساه مــن الأَرض نــازح

وقال عمرو بن الأهتم:

ومــستنبحٍ بعــد الهــدُوِّ دعوتُــه ... وقد حانَ من سارِي الشِّتاءِ طروق

فهذا من عواء الفصيل والذئب والكلب.

ما قالوا في أنس الكلب وإلفه[18]:

وقال صاحب الكلب: وممّا قالوا في أنْس الكلب وإلفه، وحبِّه لأهله ولمن أحسَنَ إليه قول ابن الطّثريّة:

يــا أَمَّ عمــرٍو أنجِــزِي الموعــودا ... وارعَــيْ بــذاكِ أمانــةً وعهُــودا

ولقــد طرقْــت كــلابَ أهلِــكِ ... حتَّــى تركــتُ عقُــورَهُنَّ رُقَــودا

يــضرِبْنَ بالأذنــابِ مِــن فــرحٍ بنَــا ... متوسِّــداتٍ أذرُعــاً وخــدودا

وقال الآخر:

لو كُنْتُ أحمِلُ خمراً يومَ زرتُكم ... لم يُنكِـر الكلـبُ أنّـي صـاحب

لكـنْ أتيـتُ ورِيـحُ المِسكِ يفعمـني ... والعنبرُ الوَرْدُ أَذكيـه على النّـار

فــأنكر الكلــب ريحــي حــين ... وكــان يعـرف ريـح الـزِّقِّ والقـار

وقال أبو الطّمَحان القينيّ في الإلف، وهو يمدح مالك بن حمار الشَمْخي:

سـأمدَحُ مالكـاً في كـلِّ رَكـب ... لقيــتُهمُ وأتــركَ كــلَّ رَذْلِ

فمـا أنـا والبكـارَةَ مـن مخـاضٍ ... عِظــامٍ جِلّــةٍ سُــدُسٍ وبُــزْلِ

---

(18) الحيوان للجاحظ (1/ 114).

وقد عرَفَتْ كلابُهمُ ثيابي ... كأنِّي منهمُ ونسيتُ أهلي
نمَتْ بك من بني شَمْخٍ زِنَادٌ ... لها ما شئتَ مِن فرعٍ وأصلِ

وقال الشاعر في أَنَس الكلاب وإلفها، يذكر رجلاً:

عنيف بتَسْواقِ العِشارِ ورَعْيِها ... ولكنْ بتَلْقَامِ الثَّرِيدِ رفيقُ
سَنِيد يظَلُّ الكلب يمضَغُ ثوبَه ... له في ديارِ الغانيات طَرِيق

وقال الآخر:

بات الحويرثُ والكلاب تَشَمُّه ... وسَرت بأبيضَ كالهلال على الطّوَى

وقال ذو الرمة:

رأتني كلابُ الحي حتَّى ألِفنَني ... ومُدَّت نُسوج العنكبوت على رحلي

وقال حسَّان بن ثابت:

أولاد جَفْنَةَ حولَ قبرِ أبيهمُ ... قبرِ ابْنِ ماريةَ الكريمِ المُفْضِلِ
بيض الوجوهِ نقيَّةٌ حُجزاتُهمْ ... شمُّ الأنُوفِ من الطّرازِ الأَوَّلِ
يُغشَوْنَ حتَّى ما تَهِرُّ كلابهم ... لا يَسَألونَ عن السّوادِ المقبلِ

وفي هذا المعنى قال الشاعر:

وبوَّأتِ بيتك في مَعلمٍ ... رَحِيب المَبَاءةِ والمسْرحِ
كفيتَ العُفاةَ طِلاَبَ القِرَى ... ونَبْحَ الكلاب لمستَنْبِحِ
تَرَى دَعْس آثارِ تلك المطيِّ ... أخادِيدَ كاللّقم الأفيَحِ
ولو كنْتَ في نفق زائغٍ ... لكُنْتَ على الشرك الأوضَح

وفي مثل ذلك، وليس في ذكر إلف الكلاب، ولكنَّه مما ينبغي أن يكون مجموعاً إلى هذه الأشعار، وبك إلى ذلك حاجة شديدة، قال أميَّة بنُ أبي الصَّلْت:

لا الغيباتُ مُنتواكَ ولكنْ ... في ذُرَى مُشْرِفِ القُصورِ ذرَاكا

وقال البزَّار الحلِّيّ، في المعنى الأول:

أَلِـــفَ النـــاسَ فمـــا ينـــبَحُهُمْ مِـنْ أسـيف يبتغـي الخـيرَ وحُـرّ

obeikandl.com